2

مهمة البارون طونوس .. مرور ٢٢٩ عاماً على تعيين أول قنصل روسي في مصر

التحق البارون كوندرات فون طونوس بالخدمة في الجيش الروسي في الرابع والعشرين من مارس عام ١٧٨٠ (جاءت كل التواريخ حسب التقويم الحديث – المؤلف) . انضم الرائد أول في الجيش الملكي البولندي طونوس النمساوي[٢٦] البالغ من العمر ثلاثون عاماً إلى سلاح فرسان يامبورجسكي كرائد ثانٍ غير أن البارون كوندراتي (كما يطلقون عليه بالروسية) فون طونوس قد آثر العمل في السلك الدبلوماسي .

في عام ١٧٧٤ أصبح من حق روسيا وفقاً للبند الحادي عشر، من معاهدة السلام «كوتشوك كينارجي» المبرمة بين تركيا وروسيا تعيين قناصل لها في جميع مدن الدولة العثمانية، التي تستدعي الضرورة وجودهم فيها . على الرغم من ذلك فقد ظل الباب العالي لأكثر من عشر سنوات تقريبا يرفض بكل الوسائل فتح قنصليات لروسيا على أراضي دولته، إلا أنه فقط بعد إبرام إتفاقية تجارية بين تركيا وروسيا والتي صدقت مجددا على الاتفاقيات القديمة في بداية عام ١٧٨٤ تم افتتاح قنصليات في بعض الجزرالأيونية (جزر يونانية واقعة في البحر الأيوني – المترجم د. محمد رياض) وفي البلقان وآسيا الصغرى وسوريا . وجاء ضمن مهام تلك القنصليات «العمل على زيادة حجم التجارة الروسية في شتى بقاع الإمبراطورية العثمانية» .

٢٦ عن مقالة : «Миссия барона Тонуса. 225 лет назад в Египет был назначен первый российский консул» ، والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقي» ، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Dmitrii Frumin . تؤكد الأدبيات الرأي الذي يقول بأن فون طونوس ينحدر أصله من النمساويين بدول بحر البلطيق . ولكن جاء في قوائم سلاح الفرسان يامبورجسكي أن البارون كونراد فون طونوس ينحدر من النازيين الأرشيف العسكري للدولة الروسية ، الملف رقم ٩٨٤ ، وثيقة رقم ٢٥١٧ ، السطر ١٣٢ .

أنشأت روسيا قنصلية لها في مصر، و أصدرت الإمبراطورة كاترين الثانية في الثلاثين من أغسطس عام ١٧٨٤ أمراً بتعيين البارون فون طونوس[٢٧] قنصلاً عاماً لروسيا في مصر. وفي السابع والعشرين من يوليو١٧٨٥ تم رفع العلم الروسي[٢٨] فوق مقر القنصلية العامة الروسية في مدينة الإسكندرية وسط احتفال بهيج. وبعد استلامه لمهام منصبه أرسل القنصل الجديد في الرابع من أغسطس أول تقاريره لرئيس الشئون الخارجية « إ.أ. أوسترمان» ليبلغ نائب المستشارعن وصوله للقنصلية ومراسم رفع العلم وزيارات القناصل الأجانب ومقابلته للباشا[٢٩].

وصل فون طونوس إلى الإسكندرية ، وتزامن ذلك مع وصول الوالي الجديد المعين من قبل الباب العالي لمصر في منتصف يوليو ١٧٨٥ . وكان يتعين على الوالي الجديد رعاية مصالح الباب العالي، وضمان وصول الضريبة لخزانة السلطان العثماني بيد أن حكم الباب العالي لمصر كان حكماً بالاسم فحسب ، حيث كانت السلطة العسكرية والإدارية في أيدي البكوات المماليك. كان الوالي علي بك الكبير يحاول أثناء الحرب التي اندلعت بين روسيا وتركيا ١٧٦٨- ١٧٧٤ جعل مصر دولة مستقلة عن الإمبراطورية العثمانية، واتخذ عدة خطوات للتقارب مع روسيا، غير أن تلك المحاولات قد باءت بالفشل، وذلك بسبب خيانة محمد بك أبو الدهب[٣٠] أحد المقربين من على بك الكبير . وقام الباب العالي بتنصيب محمد بك أبو الدهب والياً على مصر في عام ١٧٧٣ ، ولكنه سرعان ما لقى حتفه بعد عامين من حكمه. وفي خضم الصراع على السلطة فاز اثنان من أعوانه : إبراهيم بك ، ومراد بك. وبعد أن دانت لهما الأمور بدأ الاثنان الاستحواذ على جزء كبير من الضرائب التي تذهب للباب العالي من أموال وحبوب، بل وقاموا بفرض ضرائب جديدة على الشعب.

٢٧ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ٨٩ ، المجلد الثاني ، وثيقة رقم ٩٦٤.

٢٨ القاموس الروسي لتراجم السير التاريخية ، يقع في ٣٣ مجلد ، موسكو ١٩٩٩، المجلد رقم ٢٧ صـ ١٣٧ (أول صدور لهذا القاموس في ٢٥ مجلد من إصدار الجمعية التاريخية للإمبراطورية الروسية في سانت بطرسبورج تحت إشراف رئيس الجمعية أ.أ بولوفتسوف من عام ١٨٩٦-١٩١٨ ، ولم يتم نشر أية مواد عن هذا القاموس حتى عام ١٩١٨ ، عندما قام م.ب.ليبيخين بوضع تلك المواد في ثمانية مجلدات وإعدادها للنشر.

٢٨ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ٨٩ ، المجلد الثاني ، وثيقة رقم ٩٦٨.

٢٩ جاءت كتابة الأسماء بالحروف العربية على هذا النحو وفقاً لما جاءت عليه في الترجمة الأكاديمية لها التي وردت في كتاب الجبرتي: «مصر وحملة نابليون بونابارت ١٧٧٦-١٧٩٨» ، موسكو، ١٩٧٨ المجلد الثاني.

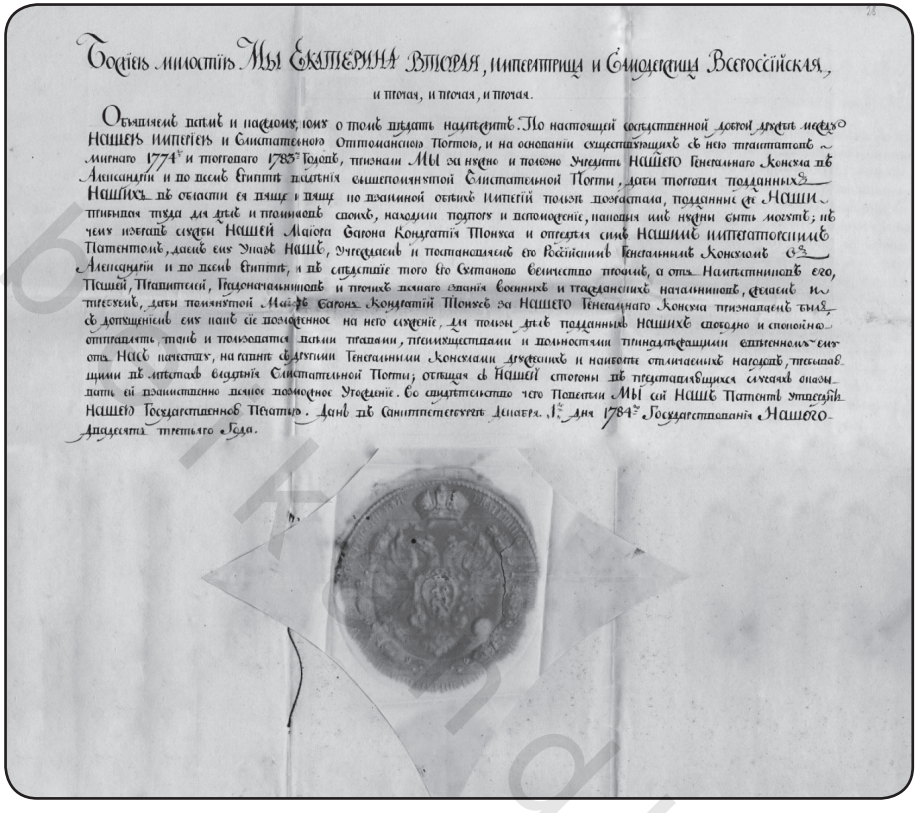

Божіею милостію Мы Екатерина Вторая, императрица и Самодержица Всероссійская,
и прочая, и прочая, и прочая.

Объявляемъ нынѣ и наслѣдникамъ нашимъ о томъ знать напечатлѣ. По настоящей состоявшейся долгой дружбѣ между НАШИМЪ ИМПЕРІЕЮ и Блистательною Оттоманскою Портою, и на основаніи существующихъ съ нею трактатовъ, мирнаго 1774 и торговаго 1785 годовъ, признали Мы за нужное и полезное учредить НАШЕГО Генеральнаго Консула въ Александріи и по всей Египтѣ нынѣшнія вышепомянутой Блистательной Порты, дани торговыя подданныхъ НАШИХЪ въ области ея ныне и впредь по давнишней обычаѣ Имперіи нашей поступающія, подданные ея НАШИ, нынѣшнее туда для дѣлъ и торговли своихъ, находили поспѣхъ и вспоможеніе, какими нужны быть могутъ; въ чемъ имѣетъ силу НАШЕЙ Маіора Барона Кондратія Тонна и отсылки сына НАШИМЪ ИМПЕРАТОРСКИМЪ Патентомъ, данъ ему Знакъ НАШЕ, учрежденія и постановленія его Всѣмилостивѣ Генеральнаго Консула въ Александріи и по всей Египтѣ, и въ слѣдствіе того его Сановное Величество тронъ, а отъ Наимилостивѣ его, Нашей, Правителей, Градоначальниковъ и прочихъ всякаго званія военныхъ и гражданскихъ начальниковъ, дѣламъ ихъ тяжелѣ, дани помянутой Маіора Барона Кондратія Тонна за НАШЕГО Генеральнаго Консула признавать была, съ допущеніемъ ему нами сіе полезное на него сложеніе, для пользы дѣлъ подданныхъ НАШИХЪ свободно и спокойно отправлять, тамъ и пользоваться всѣми правами, преимуществами и полностію принадлежащими отъ НАШЕ качествъ, на равнѣ съ другими Генеральными Консулами дружелюбныхъ и наиболѣе отличаемыхъ народовъ, имѣющими въ містахъ выдачи Блистательной Порты; отвѣщая съ НАШЕЙ стороны въ представляющихся случаяхъ опять ей взаимственно полное полезное Удовлетвореніе. Во свидѣтельство чего повелѣли Мы сей НАШЕ Патентъ утвердить НАШЕЮ Государственною Печатью. Дано въ Санктпетербургѣ Декабря 1. дня 1784 Государствованія НАШЕГО Двадесятаго третьяго года.

في مطلع عام ١٧٨٦ قام مراد بك بجباية الضرائب بالقوة والتهديد في دلتا النيل وبالتحديد في منطقة رشيد . وأرسل مبعوثاً له يدعى صالح أغا إلى الإسكندرية لجمع الضرائب . وطالب صالح سكان المدينة بدفع خمسة آلاف ريال لسد نفقات رحلته والفريق المرافق له، وطلب دفع غرامة الحرب بقيمة ١٠٠ألف ريال . وهدد صالح أغا أنه في حال رفض دفع تلك الضريبة، سيقوم بتدمير الكنائس . ولم يكن هناك من يقوم بحماية المسيحيين من أهالى الإسكندرية والتجار الأوروبيين . وكانت النتيجة أن هرب الكثيرون من المدينة خشية تعرضهم للاعتداء وعلق من بقى من الأهالي أملهم الأخير على قناصل الدول الأوروبية . وفي هذه اللحظة الحرجة والصعبة على أهالي المدينة جاءت صلابة وجرأة القنصل الروسي لتنقذ الوضع في البلاد، حيث أعلن القنصل الروسي رداً على مطالب صالح أغا أن سكان المدينة سيقومون بدفع المبلغ المطلوب منهم

ولكن في حالة واحدة عندما يصدر فرمان من الباشا [٣١] ، يؤكد أن تلك الأموال ستذهب إلى خزينة الباب العالي . وبالطبع لم يكن لمثل هذا الفرمان أي وجود لدى صالح أغا ، ولم يكن في خطط مراد بك دفع أية أموال للسلطان العثماني . وهكذا ألغيت مئات الآلاف من غرامات الحرب من على عاتق أهالي الإسكندرية [٣٢] .

في مارس من عام ١٧٨٦ وصل خطابان غير عاديين إلى مقر القنصلية الروسية بالإسكندرية . كان أحدهما من إبراهيم بك والثاني من مكسيم كاتشكاتشوف «ضابط بالمدفعية الجورجية» . وجه إبراهيم بك أحد حاكمي مصر الفعليين الدعوة للسيد فون طونوس للذهاب إليه بشكل عاجل لمناقشة موضوع هام . وفي الخطاب الثاني أشار الضابط الجورجي غير المعروف للقنصل إلى أن هناك رغبة لدى البكوات المماليك بالخروج من عباءة الباب العالي وذلك بشرط اعتراف روسيا ودعمها استقلال مصر.

تجدر الإشارة إلى أن ضابط المدفعية الجورجي «مانوتشار كاتشكاتشيشفيلي» الذي كتب اسمه باللغة الروسية «ماكسيم كتشكاتشوف» ، قد وصل إلى مصر في يناير عام ١٧٨٦ ، لزيارة أحد أقاربه [٣٣] . وكان يحمل في جعبته خطابات توصية للبكوات من قيصر مملكة كارتلي-كاخيتي الجورجية «إيراكلي الثاني» حيث أنه من المعروف أن عدداً كبيراً من البكوات المماليك يحملون جذوراً جورجية وأبخازية ، وظلوا على علاقة طيبة بالوطن . بعد لقائه مع إبراهيم بك لم يكن مانوتشار كاتشكاتشيفيلي أول مصدر يعلم منه البكوات المماليك بشأن توقيع إتفاقية جورجي فيسك بين روسيا ومملكة كارتلي-كاخيتي في عام ١٧٨٣ . غير أن وجود كاتشكاتشيشفيلي قد فتح الباب أمام البكوات المماليك لكي يكونوا على دراية ببواطن الأمور من مصادرها الأولى . وكان نموذج استقلال مملكة كارتلي-كاخيتي الجورجية تحت الوصاية الروسية نموذجاً جيداً للمحاكاة .

٣١ الجبرتي : المصدر السابق من صـ١٥٤ : صـ ١٥٥ .

٣٢ وردت هذه الرواية في كتاب الجبرتي ، ولكن وفقاً لما جاء في قاموس تاريخ السير الروسي ، المجلد السابع والعشرين ، صـ٧٣١ ، جاء فيه أن صالح أغا أعفي القناصل الأوروبيين من دفع غرامة الحرب ، ولكنه كان يجبر «المواطنين المسيحيين» على دفع تلك الغرامة .

٣٣ لم يجد عمه م.كاتشكاتشيفيلي في عداد الأحياء . الأرشيف الروسي الحكومي للمحاضر القديمة ، الملف رقم ١٥ ، وثيقة رقم ١٩٥ السطر من ١٩ : ٢٠ (الرسالة الرابعة لكاتشكاتشفيلي) ، يتم الإستعانة بالخطابات حسب الترجمة التي قام بها ف.ج ماتشارادزا والتي نشرت لأول مرة في كتابه «وثائق جورجية من تاريخ العلاقات الجورجية – الروسية – المصرية – الأثيوبية في ثمانينيات القرن الثامن عشر» ، تبليسي ، ١٩٦٧ .

لم يكن لدى « كاتشكاتشيشفيلي» أية صلاحيات رسمية لذا فقد قام البكوات لمماليك بإستدعاء القنصل الروسي من الإسكندرية لمناقشة فكرة التقارب مع روسيا .

أصبح «فون طونوس» أمام خيار صعب للغاية ؛ لأنه إذا ما عُلم بشأن تلك المباحثات سيترتب على ذلك بالضرورة وقوع أزمة دبلوماسية في العلاقات بين روسيا وتركيا . بالإضافة إلى ذلك فإن إبراهيم بك ومراد بك كانا يحاربان لصالح محمد بك أبو الدهب في مواجهة على بك الكبير . و لم يكن من السهل كذلك الثقة في ذلك الاقتراح الداعي للتعاون مع روسيا عندما يصدر من أفراد كانوا يحاربون بالسلاح محاولة سابقة لمثل هذا التقارب . كانت تبدو دعوة البكوات بمثابة حركة مستفزة ، حيث كان لدى القنصل فون طونوس مبرراً للظن أن مراد بك لم يكن لينسى له ذلك الدور الذي لعبه لصالح أهالي الإسكندرية في مواجهة صالح أغا . وفي ظل هذه الأجواء بدت رحلة القنصل الروسي إلى القاهرة بمثابة فخ خطير قد نصب له . وفي الوقت نفسه ، فإن الرفض المباشر للزيارة كان سيسبب متاعب جمة «لفون طونوس» من جانب البكوات المماليك الأقوياء .

لجأ فون طونوس للتكتيك الشرقي المعتاد في مثل هذه الحالات ألا وهو الترقب والتريث . وبعد تلقيه تلك الدعوة قرر تأجيل الزيارة معللاً ذلك بضرورة الحصول من السفارة في إسطنبول، على هدايا قيمة لحضرة وجناب الأمراء المماليك . وحقيقة الأمر، أنه بالإضافة إلى الهدايا كان القنصل ينتظر أيضا تعليمات رئيسه ياكوف إيفانوفيتش بولجاكوف ، المبعوث الروسي في تركيا .

وصل « مانوتشار كاتشكاتشيشفيلي» إلى الإسكندرية في الأول من مايو ١٧٨٦، وكان يحمل خطابات البكوات المماليك ؛ لأن القنصل لن يصل في القريب العاجل، ولهذا فقد كلفوا « كاتشكاتشيشفيلي» مباشرة ، لكي يقوم بتوصيل طلبهم إلى السفير الروسي في اسطنبول . ولم يرق هذا التصرف لـ «كاتشكاتشيشفيلي» ولا «لفون طونوس» ، وقررا مصادرة تلك الخطابات . من المحتمل أن القنصل لم يكن يثق أن تلك الخطابات حقيقية ، أو على النقيض من ذلك فقد حاول التخلص من تلك الرسائل المسيئة ، التي إذا ما وقعت في أيدي مسئولى الباب العالي ، فمن الممكن أن تسخدم كأدلة مادية . ولكن صبر طونوس قد نفد عندما وجد أحد هذه الخطابات موجهاً إلى يا.إبولجاكوف ، ويتضمن طلباً من البكوات المماليك بتعيين «كاتشكاتشيشفيلي» قنصلاً في مصر بدلاً من فون طونوس .و كانت تلك الخطابات مكتوبة باللغة الجورجية .

على الرغم من أن ضابط المدفعية النشيط قد فقد خطابات التوصية التي كانت بحوزته، إلا أن هذا لم يسبب له حيرة أو قلقاً . فقد كتب كاتشكاتشيفلي في التقرير الذي أرسله بعد عام إلى الأمير بوتيمكين أنه بعد أن تم أخذ تلك الخطابات منه بأمر من فون طونوس توجه إلى إبراهيم بك يطلب منه أن يعطيه خطاب توصية آخر . ولكنه لم يكن صريحاً مع إبراهيم بك، وكتب له أن الخطاب السابق " قد سقط منه في الماء " . وعلى الرغم من الإهمال الذي تعامل به الضابط الجورجي حيال الخطابات السرية التي عهد بها إليه إلا إن إبراهيم بك قد استجاب على الفور لطلبه، وأعطاه خطاب توصية آخر . ولا نعلم هل وصل أمر هذا الخطاب إلى القنصل أم لا ، ولكنه أجّل رحيل " كاتشكاتشيشفيلي"، الذي ذهب بدوره إلى إبراهيم بك يشكو له أمر القنصل[٣٤]. كتب إبراهيم بك إلى القنصل يطلب منه أن يسمح "لكاتشكاتشيشفيلي" بأن يغادر، أو أن يعيد إليه خطاباته . لم يكن فون طونوس راضياً عن ذلك وأجبر "كاتشكاتشيشفيلي" على أن يهديء من قلق إبراهيم بك مؤكداً على مغادرة الضابط الجورجي قريباً .

في الوقت نفسه تلبدت سماء البكوات المماليك بالغيوم، ففي الحادي عشر من مايو عام ١٧٨٦ تم إبلاغهم في إجتماع الديوان في القاهرة، بمطالب الباب العالي بشأن إرسال أموال الضرائب المتأخرة خلال شهر من الآن ، وكذلك إرسال الحبوب والأموال المخصصة لمكة والمدينة [٣٥] . وفي الثاني عشر من يوليو من نفس العام وصلت عدة سفن تركية لميناء الإسكندرية، وسرت الشائعات حول وصول الأسطول التركى قريباً . وفي ظل هذه الأجواء ، فإن التواصل مع البكوات المماليك سيشكل خطورة كبيرة . وعندما أخبر "كاتشكاتشيشفيلي" القنصل بأنه التقى مرة أخرى بمندوب البكوات المماليك، الذين طلبوا منه ضماناً بتقديم المساعدة من جانب روسيا، فأمر طونوس بإيداع الضابط الجورجى قيد الإقامة الجبرية في منزله ، وحصل منه على وعد بألا يقدم على مثل تلك الأعمال مرة ثانية .

في الثاني من يوليو وصل الأغا من إسطنبول ليطالب البكوات المماليك بالوفاء العاجل لكافة التزاماتهم للباب العالي . وباتت تلك الشائعات الخاصة بوصول الوحدات الرئيسة للأسطول البحري التركي مؤكدة حيث أرسل أحمد الجزار والي عكا رسالة

٣٤ المرجع السابق .
٣٥ الجبرتي ، المرجع السابق ، صـ ١٦٠ .

إلى البكوات المماليك يخطرهم بذلك. وسارع إبراهيم بك بإرسال خطابات تحمل التأكيد على طاعته للباب العالي والوزير، و "قبودان باشا" (قبودان باشا لفظ عثمانى يطلق على أمير الاسطول العثماني في الامبراطورية العثمانية وبالعربية قبطان باشا - المترجم د. محمد رياض) [٣٦].

في السادس من يوليو وصل الإسكندرية "قبودان باشا" غازي حسن باشا. بعد فترة وجيزة، وتوجه بقواته إلى رشيد إستعداداً للذهاب إلى القاهرة. وكتب فون طونوس في التقرير الذي أرسله إلى يا.إ بولجاكوف: "يأسف البكوات كثيراً، لأنهم لم يقتلوا القناصل قبل وصول "قبودان باشا" إلى الإسكندرية، ويعدون بتنفيذ هذا الأمر فور الانتهاء من معرفة القرار الذي سيتخذه قبودان باشا ويفضلون إلقاء التبعة على أكثر من باقي القناصل الآخرين [٣٧].

في تلك اللحظة طبقا لرواية "كاتشكاتشيشفيلي"، التي عرضها لاحقا في تقريره المفصل للأمير بوتيمكين، أرسل البكوات خطاباً للقنصل يطالبونه بأن يصالحهم على "قبودان باشا" وقالوا: "سنقوم بدفع كل ما يطلبه" وإذا ما صدقت تلك الأنباء التي أخبر بها "كاتشكاتشيفلي" سيكون من الممكن أن نتعاطف مع فون طونوس: فهؤلاء البكوات الذين أرادوا تارة قتل القنصل، وتارة يطالبونه بضمانات لبدء العمليات العسكرية ضد تركيا. الآن يشتكون من قلة القوات والعتاد ويطلبون المساعدة من القنصل؛ لتسوية ذلك الخلاف الذي دام لسنوات طوال مع السلطات التركية.

وطبقاً لشهادة "كاتشكاتشيفيلي" لم يعلم "فون طونوس" كيف يتصرف في مثل هذا الموقف، وتوجه للقنصل الفرنسي الأكثر منه خبرة ودراية؛ لطلب المشورة والنصيحة، و نصحه القنصل الفرنسي بأن يرسل خطاباً إلى محكمة المدينة؛ لكي يقوم القاضي بإخبار الباشا بطلب تسوية الخلاف. غير أن ذيوع أمر الخطاب الذي يتضمن الشكوى والتذمر من الوضع المتدني للبكوات المماليك، جاء بنتيجة عكسية، وعجل فقط في تحرك "قبودان باشا" إلى القاهرة. وبعد أن تلقى "قبودان باشا" تأكيدات عن ضعف البكوات المماليك لم يرغب في المصالحة معهم. وقد أسقط في يد القنصل الفرنسي أن يعلم البكوات المماليك كيف تعامل القنصل الروسي بغدر مع خطابهم.

٣٦ المرجع السابق، صـ ١٦٣.

٣٧ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورة الروسية، الملف رقم ٨٩، الحافظة رقم ٨، المجلد الثاني، وثيقة رقم ٦٧٥، السطر من ١٥: ١٧، إقتباس من ج.ف. ماتشاراد زا – المرجع السابق، صـ ٥.

في ظل تفسير وتأويل تلك الأحداث، سنجد أن هناك تناقضات. فمن المستبعد أن يكون القنصل الروسي شخصية بارزة في نظر الأدميرال العثماني لكي يستعين به كعضو في هيئة التحكيم. بل كانت تلك الشهرة من نصيب سعيد نجم الدين ، الذي وصفه المعاصرون بأنه محام بارز ومتفوق وعالم مشهور [٣٨]. ظل نجم الدين في إسطنبول ما بين عامي ١٧٨٤-١٧٨٥ ؛ ليساعد حسن باشا في إعداد الحملة العسكرية على. وبمجرد أن وصل إلى مصر تم تعيين نجم الدين قاضياً للمدينة.

حاول "قبودان باشا" الحرص على احترام القوانين لاستمالة الناس نحوه. وبعد مرور شهرين طلب والي مصر من تجار القاهرة سداد الدين من خلال دفع الضرائب المفروضة على جلب التوابل. وقام التجار بتقديم صحيفة، أوضحوا فيها أن إبراهيم بك الذي كان يشغل في ذلك الوقت منصب القائمقام، ونائب والي مصر، قام بتحصيل الضرائب منهم. وعندما رفض الوالي الاعتراف بأن هذه المدفوعات شرعية وقانونية (حيث أن الأموال التي جمعها إبراهيم بك لم يعطها له) ، وطالب بمدفوعات أخرى. عندئذ توجه التجار إلى "قبودان باشا" طلبا للمساعدة، والذي نصحهم بدوره بالتوجه إلى المحكمة الشرعية، حيث تم التأكيد هناك على براءة وصدق التجار [٣٩].

وإذا كان الخطاب الموجه إلى "فون طونوس" الخاص بطلب البكوات مساعدته في الصلح كان موجودا بالفعل، فإن قرار تقديم هذا الخطاب للقاضى، يعد خطوة مبررة .علاوة على ذلك، فإن قيام فون طونوس بإظهار هذا الخطاب، يجعله يبعد عن نفسه أية شبهات لمساندة المماليك. وكان من الصعب التنبؤ بقادم الأحداث ، حيث لم يستطع أحد أن يجيب إجابة محددة على هذا السؤال : هل سيصل الأمر إلى حد المواجهة العسكرية أم لا ؟ وإذا ما وصل إلى ذلك فلمن ستكون الغلبة إذن ؟ وكان التزام الحياد إزاء الصراع بين ممثلي الباب العالي والمتمردين من رعاياه هو التصرف السليم والوحيد في تلك اللحظة .

في الثامن من أغسطس عام ١٧٨٦ دخل حسن باشا إلى القاهرة دون أية مقاومة، وفرّ إبراهيم بك ومراد بك إلى صعيد مصر. وقد قرر "قبودان باشا" مطاردتهما حيث أراد خوض معركة حاسمة قبل أن ينخفض مستوى المياه بنهر النيل الأمر الذي سيعوق تحرك السفن التركية. وفي السادس والعشرين من أكتوبر وقعت معركة عنيفة عند المنشية وتكبد الطرفان خسائر كبيرة، ولم يحرز أي من الطرفين نصراً حاسماً. وظل المماليك في صعيد مصر، وإضطر حسن باشا لطلب التعزيزات من الباب العالي.

٣٨ الجبرتي ، المرجع السابق ، صـ ٢٠١ .
٣٩ المرجع السابق ، من صـ ١٨٨ : صـ ١٩٠ .

وفقاً لرواية "مانوتشار كاتشكاتشيشفيلي" الذي كان مازال بالإسكندرية آنذاك، أنه بعد تلك المعركة التي وقعت في المنشية، قام مندوبو البكوات بالإتصال به مجدداً . كان "كاتشكاتشيشفيلي" يريد التخلص من رقابة فون طونوس فحاول مغادرة المدينة وطلب الذهاب إلى القدس للحج غير أن القنصل منعه من مغادرة الإسكندرية. وأخيراً وبعد أن أقنع الضابط القنصل برغبته في شيء واحد فقط وهو الذهاب بسرعة إلى وطنه، سمح القنصل له بالسفر. وبعد أن أدرك كاتشكاتشيفيلي أنه لا يحمل معه غير خطابات باللغة الجورجية بدون توقيع، فسيكون من الصعب إذن إقناع السفير في اسطنبول بتلك المهمة، التي كلفه بها بكوات المماليك، فحاول أن يقنع تُرجمان القنصلية بأن يعطيه خطاباً مرفقاً لأجل يا.إ بولجاكوف.

وصل "كاتشكاتشيفيلي" أخيراً إلى إسطنبول في يناير من عام ١٧٨٧ ، غير أن بولجاكوف كان يستمع لروايته بانتباه شديد وارتياب . إذ أن دعم ومساندة المماليك تعني قطع العلاقات مع تركيا الأمرالذي كانت روسيا تحاول أن تتفاده في ذلك الوقت. بالإضافة إلى ذلك، فإن الثقة في مبادرات الضابط الجورجي تقوضها تلك الأخبار حول المباحثات التي أجراها إيراكلي الثاني مع سليمان باشا أخلاطسى، الأمر الذي يخالف اتفاق جيورجي فيسك. وبعد أن قضى "كاتشكاتشيفيلي" شهرين في اسطنبول دون أن يحصل على رد لطلبه، غادرإلى روسيا ، حيث كتب عدة تقارير إلى الأمير بوتمكين، يخبره فيها عن الأوضاع في مصر ومشروع إقامة علاقات مع أثيوبيا، وقد عرض خدماته في أن يصبح سفيراً لروسيا في أثيوبيا [٤٠].

مع مطلع عام ١٧٨٧ بدأ الباب العالي يستعد بهمة لخوض الحرب ضد روسيا. وفي إطار تلك الاستعدادات تم استدعاء القوات من مصر بالتدريج ، وكان يتعين على حسن باشا إنهاء عملياته في صعيد مصر. وفي السادس والعشرين من يوليو عام ١٧٨٧ وجهت تركيا إنذاراً نهائياً إلى روسيا بشأن مطالبها الإقليمية. كان أحد بنود الإنذار المطالبة بسحب القنصل الروسي في كل من ياسي وبوخارست والإسكندرية [٤١].

٤٠ الأرشيف الروسي الحكومي للمحاضر القديمة ، الملف رقم ١٥ ، وثيقة رقم ١٩٢ ، السطر ١٧ ، ١٨ .

٤١ ب. بيرتينوف «ثلاثة مشاهد في العلاقات الروسية – العربية في القرن ١٨ ، المشهد الثالث . أول قنصل روسي بالإسكندرية \\ آسيا وأفريقيا اليوم ، العدد رقم ٩ لعام ١٩٨٧ ، صـ ٥٢ .

في الرابع والعشرين من أغسطس، تم إعتقال القنصل الروسي بولجاكوف في إسطنبول ، وإيداعه القصر ذى الأبراج السبعة ، وبدأت الحرب .... وفي التاسع عشر من سبتمبر ١٧٨٧ تم إنزال العلم من على مبنى القنصلية الروسية بالإسكندرية ، وغادر البارون فون طونوس مصر . وفي يوم السابع والعشرين من سبتمبر، أعلن في جلسة الديوان بالقاهرة فرمان السلطان العثماني، الخاص بإستدعاء حسن باشا إلى اسطنبول ، لكي يترأس " الجهاد ضد موسكو" [٤٢] . وفي السادس من أكتوبر غادر "قبودان باشا" القاهرة بعد أن كلف اسماعيل بك بحكم مصر العليا، وهو أحد المماليك الموالين لعلى بك الكبير .

وصل فون طونوس صقلية في مطلع أكتوبر ثم ذهب إلى إيطاليا (من المرجح أن يكون وصل إلى ليفورنو) ومن هناك في السادس عشر من نوفمبر أرسل تقريراً إلى نائب المستشار "أوسترمان" عن نشاطه بالإسكندرية . وبعد أن قام فون طونوس بتحليل الوضع في مصر أشار إلى إمكانية إحداث تغيير في الحكم هناك أو بعبارة أخرى قدم مشروعا حول إخراج مصر من عباءة السلطان العثماني [٤٣] .

كان هذا المشروع يشبه كثيراً تلك الاقتراحات التي تقدم بها الضابط الجورجي من قبل إلا أنه لم يول الأصول الجورجية ، والأبخازية أو السلافية لهؤلاء البكوات المماليك أهمية كبيرة في التعاون المقترح . قامت خطته بالأخص على دعم الطموحات الانفصالية للبكوات المماليك الذين أرادوا التخلص من سيطرة الباب العالى .

لايكمن الفرق بين مشروعي "كاتشكاتشيشفيلي" و "فون طونوس" في الاختلافات الداخلية لتلك المشروعات بقدر ما يكمن في الظروف الدولية المتغيرة . فقد قطعت تلك الحرب أي اتصال بالبكوات المماليك الثائرين، هذا بالإضافة إلى أن مغادرة "قبودان باشا" (قائد الأسطول التركي) وسحب القوات التركية قد غيّر موازين القوى في مصر . وفي البلطيق كان هناك أسطول يستعد للذهاب إلى البحر المتوسط؛ لكي يكرر نجاحات حملة الأرخبيل سنوات ١٧٦٩ـ ١٧٧٤ .

٤٢ الجبرتي ، المرجع السابق ، صـ ٢٣٤ .
٤٣ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، الملف رقم ٨٩ ، حافظة رقم ٨ ، المجلد الثاني، وثيقة رقم ٩٧٧ .

في حال تنفيذ الخطة المرسومة، فإن انفصال مصر سيضمن للأسطول الروسي قاعدة عمليات في شرق البحر المتوسط، وسيحرم الباب العالي مصدراً هاماً من مصادر إمداده بالمواد الغذائية، وإبعاد جزء من القوات التركية من مسرح العمليات الأوروبي. وكل هذا سيتحقق بدون أية نفقات أو استثمارات. فالحديث كان يدور في واقع الأمر حول تنسيق للعمليات المشتركة، وكان لغياب ذلك التنسيق الدور الحاسم في فشل التحالف مع علي بك الكبير. جاء مشروع «فون طونوس» في الوقت المناسب والملائم تماماً وتلقفته الأيدي المناسبة. ففي نهاية نوفمبر ١٧٨٧ في اجتماع مجلس الدولة، تم قراءة الأنباء الخاصة بسحب القنصل الروسي من الإسكندرية، وفي مطلع ديسمبر، تم مناقشة التقرير الذي أرسله القنصل في السادس عشر من نوفمبر[٤٤]. وبعد أن اطلعت الإمبراطورة كاترين الثانية على التقرير، أصدرت أمراً بسرعة استدعاء البارون «فون طونوس» إلى سانت بطرسبورج. وبعد مجيئه إلى بطرسبورج[٤٥] في الخامس عشر من فبراير ١٧٨٨ أعد البارون مذكرة بها وصفاً لمشروعه. وبعد مرور ثلاثة أيام، عقد مجلس الدولة اجتماعا بحث فية مشروع «فون طونوس»، ثم قام بإقراره.

حضر الاجتماع س.ك جريج الذي تم توجيه الدعوة له بصفة شخصية، حيث أنه سوف يترأس الأسطول الروسي بالبحر المتوسط. واقترح فون طونوس في إطار المشروع، أن يتم تزويد البكوات المماليك الذين كانوا يعانون من عجز في المدفعية بالذخيرة والمدافع النحاسية. وكان من المفترض أن يتم نقل كل هذا على متن أسطول جريج. كما قرر المجلس كذلك إثباتاً لحسن النوايا حظر الهجوم على أية سفينة ترفع العلم المصري. وقد أكد هذا الإجراء للمماليك جدية نوايا الروس، وإسهامهم في انجاح المفاوضات. وصدرت بذلك الأوامر المناسبة من القائد جريج الذي كان مسئولاً عن مراقبة أعمال القراصنة[٤٦].

٤٤ أرشيف المجلس الحكومي، المجلد الأول المجلس في عهد كاترين الثانية (١٧٦٨- ١٧٩٦) ، سانت بطرسبورج ١٨٦٩ ، ص٥١١ ، ص ٥١٥ .

٤٥ جاء في المذكرة التي قدمها طونوس والمكتوبة باللغة الفرنسية قبل مناقشة خطته في مجلس الحكومة «SPb, 4 fevre 1788, Conrad Baron Thonus, Mayor a Consul general on Egypte" (أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم 98 ، حافظة رقم 8 ، وثيقة رقم 779 ، السطر 11) .

٤٦ أرشيف مجلس الدولة ، من صـ ٥٣٦ : ٥٣٧.

في الحادي والعشرين من فبراير، بدأ المجلس يستمع إلى خطاب جريج الموجه إلى نائب المستشار، الذي يوضح فيه الأدميرال رأيه بشأن تنفيذ مشروع فون طونوس. وكان قرار مجلس الدولة، وخطاب جريج بمثابة الأساس للتوصيات السرية الموقعة من القيصرة إلى «فون طونوس»، والتي تليت في المجلس في الثامن والعشرين من فبريرعام ١٧٨٨. وجاء فيها: « رابعاً: مادام قد وجدتم النوايا الحسنة من جانب البكوات المصريين تجاهنا، فقد قمنا بتزويدكم أولاً: بخطابنا لهم، وثانياً: المساعدة الكاملة التي يمكنكم بيان تفاصيلها معهم عند معرفة احتياجاتهم المباشرة وربما بإذن سمونا يمكنكم وضع شروط مبدئية بموافقة الأدميرال جريج وبعد ذلك سنوافيكم بتصديقنا». « خامساً: علاوة على التأكيدات التي جاءت في خطاب سمونا للبكوات المماليك، أضف إليها هذه الكلمات، إننا نشيد بجهدهم في تحقيق الرفاهية للقطر الذي يحكمونه، ولكم يسعدنا أن نرى أنهم قد خرجوا من قبضة الغرباء نالوا الاستقلال والأمان وأن الوقت الآن هو أنسب وقت لفعل ذلك الأمر و يجب عدم تفويت الفرصة والوقت، والإ لن يجدوا مثلهما أبدا [٤٧]. فعدونا مشغول بالحرب ضدنا وضد حليفنا إمبراطور روما. وبالإضافة إلى جيوشنا الكثيرة التي تعزل قواته من جبال القوقاز حتى البحر الأدرياتيكى، وأسطولنا الذي يهدده في البحر الأسود فإن أسطولنا في البحر المتوسط في هذا الربيع المرسل مع عدد كبير من القوات البرية، يقلقه لدرجة أنه لن يكون قادراً على تخصيص أي قوات لاضطهاد واكتساح جديد لمصر ....» [٤٨]

جاء في التوصيات كذلك، ضرورة إلتزام السرية التامة: « سنترك لحسن تقديركم أي طريق تختارونه لرحلتكم عبر تريستي [٤٩] * أو راجوزا [٥٠] * ومن هناك تستقلون سفينة مؤجرة، كأنها سفينة تجارية، أو بالقطار عبر إيطاليا. ونؤكد على التزامكم الحذر أنه في كلتا الحالتين يتعين الحفاظ على هذا السر بحيث لا يستطيع أحد أن يتكهن بمغزى رحلتكم من هنا، ويمكنكم أن تقولوا هنا إنكم ذاهبون لرؤية عائلتكم وهناك ستنتظرون إما وصول الأسطول؛ أو توظيفكم في مكان لا يتطلب عملاً شاقاً بل سهلاً ومماثلاً لعملكم الحالى ....» [٥١]

٤٧ يصعب قراءتها في النص كما ورد بالنص الأصلي.

٤٨ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية، الملف رقم ٩٨، الحافظة رقم ٨، المجلد الثاني، وثيقة رقم ٨٩، السطر ٢،٣.

٤٩ * تريستي: أسطاجانكو - مدينة وميناء في شمال شرق إيطاليا قرب الحدودم مع سلوفينيا (المترجم).

٥٠ * راغوزا: مدينة إيطالية جنوب شرق صقلية، عاصمة مقاطعة راغوس. (المترجم).

٥١ المرجع السابق.

بعد أن تسلم البارون فون طونوس المرسوم الإمبراطوري، والتعليمات، والخطابات من الأدميرال جريج، غادر سان بطرسبورج على الفور. وقد وصل إلى العاصمة وهو يحمل رتبة رائد ليخرج منها حاملاً رتبة عقيد. وقد بذل الزملاء بالشئون الخارجية قصارى جهدهم لانجاح تلك المهمة السرية. وصدر الأمر للأمير د.م. جوليتسين السفير في فيينا، بتنظيم عملية تسليم التقارير الواردة من فون طونوس لناقلى المراسلات. وقد أوصل فون، طونوس بنفسه هذا القرار إلى السيد بيزبارودكو [٥٢]. ومن خلال المبعوث الروسي في فلورنسا قبطان سفينة البريد «النسر الروسي» موتسينيجو تلقى ك.ج أبونسولي أمراً بأن سفينته بكل مافيها من ذخائر، تصبح خاضعة للعقيد طونوس [٥٣].

وصل فون طونوس إلى مدينة جنوة بوصفه تاجراً من ستراسبورج يُدعى «بيتر لورمان» في العاشر من مايو ١٧٨٨، بعد أن زار العديد من الموانيء في إيطاليا. وأظهر المرسوم الملكي للسيد أكيم جريجوريفيتش ليزاكيفيتش القائم بالأعمال الروسي، وطلب منه المساعدة في ترتيب رحلته إلى مصر. وبفضل اتصالات وعلاقات أ.ج. ليزاكيفيتش مع أنطونيو كازيلاري، القنصل غير الرسمي لجمهورية راجوزا في جنوة، تم إبرام إتفاق مع أحد ملاك السفن من راجوزا، ويُدعى ميخائيل تورتشينوفيتش حول تأجير سفينة: «فيرجو بوتنس، وسايت يوجانسيس بابتيس» ذات الثلاث صوارى. ووفقاً لهذا الإتفاق تعهد مالك السفينة بنقل «بيتر لورمان» إلى مالطا وعكا ودمياط وأي مكان يريده لشراء البضاعة التي يحتاجها. تم إبرام الاتفاق لمدة ستة شهور، وكانت قيمة الإيجار الشهرى ألفين ليرة أو ١٣٠ من عملة البندقية. تم دفع الإيجار أربعة شهور مقدماً، وتأجيل الدفع عن شهرين؛ لكي ينصاع مالك السفن لرغبات المستأجر. وتم توثيق العقد عند الموثق الرسمي. وبشهادة أنطونيو كازيلاري. قام أ.ج ليزاكيفيتش لحرصة على السرية وعدم ثقته في أي شخص بتشفير تقرير فون طونوس المرسل إلى نائب المستشار أوسترمان [٥٤].

في الحادي والثلاثين من مايو ١٧٨٨، خرجت السفينة من جنوة، ولكنها عادت مرة أخرى إلى الميناء، بسبب «الرياح المعاكسة». وفي الخامس من يونيو في تمام الثامنة مساء توجه فون طونوس إلى رحلته الأخيرة. وخلال عدة شهور لم ترد عنه أية أخبار. وفي الرابع والعشرين من

٥٢ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية، الملف رقم ٣٢، الحافظة رقم ٦، وثيقة رقم ٧٢٣، السطر ٢.

٥٣ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية، الملف رقم ٤٨، الحافظة رقم ٢، وثيقة رقم ٤٦، السطور من ٥٠- ٥٣.

٥٤ المرجع السابق، السطور من ٤٠ – ٤٥.

أكتوبر تلقى أ.ج ليزاكيفيتش رسالة من زانتي- إحدى الجزر الأيونية – تفيد بأن «بيتر لورمانوف» قد شوهد هناك . وقد غادر سفينة «راجوزسك» في مالطا، وهناك حصل على سفينة أخرى من القرصان الشهير جوليلمى . وقد عرج على متن تلك السفينة في الصيف على زانتي ، حيث كان الكثيرون يعرفون القنصل معرفة جيدة . وقد تذمر ليزاكيفيتش من : « أن البعض كانوا يخبرون أصدقاءهم عنه في نفس المكان، عن الطريق الذي سيسلكه حتى إنهم كانوا يعرفون بقدومه» [٥٥] وقد عرفنا عن سير الأحداث القادمة بصفة أساسية من مصادر غير مباشرة ، ولذلك يمكننا فقط أن نبنى فرضيات وتخمينات . لكن ما الذي أجبر فون طونوس على تغيير خطته ؟ ولماذا لم يتوجه بعد زيارته لمالطا إلى الجنوب الشرقي للساحل الأفريقي ومنه إلى مصر ، ولكنه إتجه إلى الشمال الشرقي نحو اليونان ؟ يبدو أن السبب وراء ذلك، يرجع إلى قيام أسطول القرصنة الصغير والخفيف، بقيادة الرائد لامبروس كاتسونيس في ربيع ١٧٨٨ بمعارك عسكرية ناجحة في مياه البحر المتوسط . وبحلول يونية، كان تحت قيادته حوالى ١٠ سفن مسلحة تسليحاً جيداً مع طاقم يتكون من حوالي ٥٠٠ شخص [٥٦] . وبعد أن غادر لامبروس كاتسيونيس تريستا، لم يكن يعلم شيئا عن القرار الصادر بشأن مهمة طونوس . وكان يمكن بالفعل أن تشكل الأعمال العدائية من جانب القراصنة الروس ضد السفن التجارية المصرية، صعوبة في التواصل مع البكوات وتقويض مصداقية حديث فون طونوس. وكان يمكن لفون طونوس حامل رساله الأدميرال جريج والمرسوم الملكي ترتيب لقاء شخصي مع لامبروس كاتسيونيس، الذي كانت توجد قاعدته في جزيرة زانتي ؛ لكي يخبره عن مهمته، و يحاول إقناعه بالتوقف عن توجيه الضربات للسفن المصرية . لكن لعدم تواجد لامبروس في الجزيرة كان يمكن لفون طونوس أن يخبره بالتعليمات المناسبه عن طريق نائب القنصل الروسي في جزيرة زانتى – زاجورسكى . بيد أن طونوس لم يعثر على أحد في جزيرة زانتي . وفي منتصف الصيف قام أسطول كاتسيونيس بحصار واجبار الحامية التركية على تسليم حصن كاستل روسو ، بالقرب من شواطيء آسيا الصغرى، ثم أخذ ذلك الأسطول الصغير يجوب شرق البحر المتوسط .

٥٥ المرجع السابق ، الوثيقة رقم ٤٨ ، السطر ١٠.

٥٦ أنظر : ل.د. برياخين «لامبروس كاتسونيس في تاريخ اليونان وروسيا»، سانت بطرسبورج ، ٢٠٠٤ ، صـ ٢٣ .

يمكن تفسير ذلك التغيير المفاجيء في الرحلة، وزيارة جزيرة زانتي، باللقاء المحتمل مع لامبوس كاتسيونيس . غير أن هذا لا يفسر لنا السبب الذي جعل فون طونوس يتخلى فجأة عن الالتزام بالسرية ويترك السفينة المؤجرة راجوزسك، وينطلق إلى هدفه المنشود، بدون سرية تقريبا . فلماذا لم يعد البارون يتبع التعليمات التي تلقاها ؟ وتسمح المعلومات غير المباشرة التي بين أيدينا أن نطرح افتراضين .

الفرضية الأولى ترتبط بتسريب معلومات عن مهمة فون طونوس. ففي نفس اجتماع مجلس الدولة الذي انعقد في الحادي والعشرين من فبراير ١٧٨٨، والذي تم فيه مناقشة رأي الأدميرال جريج قرئت رسالة فحواها، أن الإمبراطور النمساوي جوزيف الثاني، طبقاً لالتزامات التحالف مع روسيا، قام بإرسال مذكرة إلى إسطنبول بإعلان الحرب . وأعلن بعد ذلك السفير النمساوي جراف كوبنتسل عن محاولات بلاط فيينا الإتصال مع الباشا الذي خلع طاعة الباب العالي .. ورداً على هذه الصراحة والعلانية، قرر مجلس الدولة إعلام الجانب النمساوي "بالإجراءات التي اتخذها الجانب الروسي بشأن الاتصال بذلك الباشا" وإعلامهم كذلك بكافة الإجراءات السابقة على الأعمال العسكرية المزمع القيام بها[٥٧] .

في إطار سياسة الشفافية والعلانية تجاه الدولة الحليفة، تم إعلام الجانب النمساوي في ربيع ١٧٨٨ بالمهمة التي يقوم بها البارون فون طونوس. وكان لهذا الخبر تداعيات غير متوقعة . ففي التاسع والعشرين من مايو حصل الأمير د.م جوليتسين- السفير الروسي في فيينا – على " تقرير حكومي رسمي" من المستشار النمساوي كانوتس ، ودهش عندما علم من التقرير أن البلاط النمساوى قرر إرسال الكونت شتاريمبرج ، كمبعوث خاص إلى مصر لإجراء مباحثات مع البكوات المماليك .

بعد أن علمت الإمبراطورة كاترين الثانية بهذا القرار من الجانب النمساوي جاء رد فعلها سريعاً وحاسماً . كتبت إلى جوليتسين في الثالث عشر يونيو ١٧٨٨ : " الأمير دميتري ميخائيلوفيتش! إن الفائدة التي يمكن إقتناصها من المماليك المصريين لصالح الحرب الحالية مع الأتراك قد حظينا بها من بداية تلك الحرب . وبموجب قرارنا، تم إرسال المقدم فون طونوس هناك كقنصل عام مقيم بالإسكندرية . علاوة على ذلك ، فقد تم اتخاذ إجراءات أخرى " بحيث أنه في حالة إذا ما قرر المماليك تأكيد استقلالهم والقيام بأعمال حربية ضد العدو إلى جانب سوريا،سنقوم بتقديم المساعدة لهم أثناء إبحار أسطولي في

٥٧ أرشيف مجلس الدولة ، صـ ٥٣٧ .

البحر المتوسط ، ولكن أقول لكم بصراحة ، إنني أخشى من أن يسهم الكونت شتاريمبرج أو آخرون من المبعوثين من قبل البلاط النمساوى، في إعاقة نجاح تلك المهمة، فنحن في حاجة إلى السرية التامة ، وكلما قل عدد الأفراد الذين يتم الاستعانة بهم في ذلك الشأن السرى كان النجاح مؤكداً ، بالإضافة إلى ذلك لكي لا يفكرون في التنافس مع البارون فون طونوس، وهذا من شأنه أن يفسد المهمة . والأفضل في ذلك الشأن لوأن البلاط النمساوى قام بتقليص خدماته بخصوص هذه القضية، ومساعدة المماليك المصريين بإعلان الإمبراطور النمساوى حمايتة لهم، وتقديم النصح لهم، لاستغلال الوقت الراهن، للتخلص من نير وظلم الأتراك وتحريضهم على القيام بأعمال حربية لتأكيد استقلالهم واستتباب الأمن لهم في المستقبل ، وإبلاغهم أننا سنرسل أسطولنا إلى مياه البحر المتوسط، ويمكنهم أن يعولوا على مساعدته لهم . وسيقوم مبعوثنا من روسيا بشرح عاجل ومفصل . وإنني أعول على اجتهادكم ، وحذركم في أن تحتفظوا بسرية المعلومات مع الأمير كاونيتس؛ لكي لا يحدث أي ضرر أو معوقات من جانب مبعوثي البلاط النمساوي لمهمتنا التي بدأناها من قبل [٥٨] .

بعد أن حصل الأمير جوليتسين بالبريد، على مرسوم الإمبراطورة كاترين الثانية في الخامس من يونيو، قدم احتجاج الجانب الروسي الحاد للجانب النمساوى ، وحصل منه على قرار بإلغاء خطة إيفاد مبعوث خاص لمصر ، ولكن مالايمكن إصلاحة قد حدث، حيث أنه أثناء صدور هذا القرار ، كان الكونت شتاريمبرج موفد البلاط النمساوى للتفاوض مع البكوات متواجداً في سالونيك باليونان . وصدر إليه الأمر بسرعة التوجه إلى فيينا لتلقي التعليمات اللازمة . وقد وقع الخطاب في أيدي المبعوث الدبلوماسي في تريستي، التاجر دومينكو فرانتشيسكو بيليتي . كان بيليتي يعلم أنه سيمضى وقت طويل حتى يتسلم شتاريمبرج هذا الإستدعاء ، ثم يتحرك من سالونيك إلى تريستي، حيث لابد أن يخضع هناك للحجر الصحي، ثم يتحرك إلى فيينا لتلقي التعليمات ثم ينتقل في النهاية إلى مصر، فقام بمبادرة من تلقاء نفسه . فقرر بيلتي إرسال "شخص موثوق فيه" ، إلى مصر، لكي يمهد الطريق لوصول الكونت شتاريمبرج . لقد وجدنا لهذا الغرض شخصاً موثوق به وهو الأب أجابيوس، الحاصل على وسام الباسيلية وهو راهب وكبير الكهنة ورئيس دير المنقذ في جبل لبنان ، وينحدر من أصول دمشقية وقد تمكن من إنجاز العديد

٥٨ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورة الروسية ، الملف رقم ٣٢ ، الحافظة رقم ٦ ، وثيقة رقم ٧١٣ ، السطور من ٨٩ – ٩٠ .

من الأشغال للبلاط للفرنسي، وبلاط روما بنجاح ، وهو على علم ودراية كاملة بمصر، ويتحدث العربية بطلاقة ، وقد أقسم على الحفاظ على السر ومن ثم أخبرناه بالأمر " [٥٩].

من الممكن أن يكون وراء مبادرة التاجر بيليتي هذه أغراض أخرى تجارية ،شخصية ، حيث أن الأب أجابيوس هو ابن عم شريك بيليتي، ويدعى الكونت كاسيس فرعون . وكان بيليتي يعتزم إرسال رسائل مع الأب أجابيوس لأصدقائه في مصر الذين كان للشركاء " مشروعات قديمة " معهم . وبعد وصول شتاريمبيرج إلى مصر، اقترح بيليتي استخدام رئيس الدير أجابيوس كمترجم . وأرسل بيليتى الأب أجابيوس إلى الإسكندرية على متن سفينة راجوزسك، وزوده بشفرة معينة للمراسلات فيما بينهما . غير أن الدبلوماسي النمساوي في تريستا التي تحرك منها الأسطول الصغير بقيادة لامبروس كاتسيونيس في ربيع ١٧٨٨ ، كان يعلم جيداً من بيده نجاح تلك العملية . وكتب بيليتي إلى فيينا في مايو : " سبق وأن أشرت أكثر من مرة من خلال التقارير التي أرسلها إلى أهمية إعلام الجانب الروسي عن كل شيء مباشرة، أو عن طريق سفيرهم في فيينا الذي يعمل من خلال الأمير كاونيتس أوعن طريق الكونت كابينتسل ، حتى أن قائد الأسطول الروسي بمقدوره أن يتواصل معنا " [٦٠] .

في مطلع عام ١٧٨٨ عندما تخلت حكومة النمسا عن إرسال مبعوث خاص لها إلى مصر، كان رئيس الدير أجابيوس قد وصل الإسكندرية . وتقرر إرسال تعليمات له من خلال بيليتي والكونت كاسيس ليقوم بتنسيق أعماله مع فون طونوس "فلا يفعل أي شئ من تلقاء نفسه، أو خلاف مايتخذه ، ويقوم به فون طونوس" [٦١].

أبحر فون طونوس من جنوة في مطلع يونيه، ولم يعلم أي شيء عن مهمة شتاريمبرج، أو رئيس الدير أجابيوس . ولوعلم في جزيرة زانتى أنباء هذه المنافسة غير المتوقعة، أو وجود شخص في الإسكندرية قد أعد كل ماهو ضرورى لوصوله، لكان قد غير جميع خططه .

٥٩ المرجع السابق ، وثيقة ٤١٦ ، السطر ٥٦ .
٦٠ المرجع السابق ، السطر ٥٨ .
٦١ المرجع السابق ، وثيقة ٧١٧ ، السطر ٢٢ .

ولعل السبب الثانى، الذي دفع القنصل الذي يتصف بالحذر إلى العجلة، من قبل ذلك، تلك الشائعات الكاذبة، حول تغيير السلطة في مصر . فقد جاء في كتاب الجبرتي ، أنه عندما وصل رسول اسماعيل بك محملاً بالهدايا للسلطان العثماني في اسطنبول كان يسود هناك هرج ومرج، من جراء شائعات قوية،حول عودة مراد بك وإبراهيم بك من صعيد مصر إلى القاهرة ، وهروب اسماعيل بك ، ولكن وصول الرسول المحمل بالهدايا قد هدّأ من ذعرهم . وعاد رسول اسماعيل بك إلى مصر في منتصف يوليو [٦٢] ، لذلك فإن إنتشار الشائعات، ربما تعود إلى مطلع صيف ١٧٨٨. ولعل تغيير السلطة بالقاهرة يكون بمثابة اللحظة الحاسمة لبداية المباحثات .

يورد الجبرتي في كتابه كافة الاتصالات الماضية، التي عقدت بين المماليك وممثلي "قيصر موسكو" وذلك عند ذكر وصول المبعوث الروسي . جاء في كتاب الجبرتي : بعد أن علم قيصر موسكو بشأن القوات التركية المزمع إرسالها إلى مصر (تحت قيادة حسن باشا) ، سرعان ماقام بإرسال رسالة إلى الأمراء المماليك، يحذرهم من ذلك الأمر . وقد تم إرسال هذه الرسالة عن طريق القنصل المقيم بالإسكندرية . و في الرساله يحث الأمراء على تحصين الميناء ، والحيلولة دون قيام قوات حسن باشا بعملية إنزال . وبعد أن وصل القنصل إلى القاهرة التقى مع الأمراء المماليك، وأخبرهم بكل شيء، غير أن الأمراء لم يبدوا أي اهتمام بما ذكره القنصل ، وغادر القنصل دون الحصول على أي رد . وعندما وصل "حسن باشا " أدرك المماليك مدى أهمية ذلك التحذير، وحاولوا إستدعاء السفير،ولكنه لم يستجب لهم [٦٣] .

إحتلت زيارة "مانوتشاركاتشكاتشيشفيلي" إلى القاهرة مكان الصدارة في، وصف الجبرتى، فكما نعلم أن فون طونوس لم يذهب لمقابلة إبراهيم بك . علاوة على ذلك فقد وصلت الأخبار للبكوات عن الحملة التي تم إعدادها من مصادر مختلفة ، من بينها القنوات الرسمية في اسطنبول . وكتب الجبرتي لاحقا : " حدث ما يلي : هرب الأمراء المماليك إلى صعيد مصر، وكتبوا للقنصل، وبعث برسالتهم إلى القيصر الروسي ، و ذهب إلى الأمراء على جمل سريع الخطى ؛ ليلتقي بهم . وقد جاء هذا اللقاء مصادفة في نفس ميعاد معركة المنشية في العام الماضى ، وتكبد المصريون آنذاك الهزيمة ، وسرت شائعات عن عودتهم" .

٦٢ الجبرتي ، المرجع السابق ، من صـ ٢٦٢ : صـ ٢٦٣ .
٦٣ المرجع السابق ، صـ ٢٦٧ .

جاء ذلك الخبر عند الجبرتي، عقب وصول فون طونوس إلى دمياط في عام ١٧٨٨ وبالتالي، فإن العام السابق يكون عام ١٧٨٧ ؛ لأن معركة المنشية وقعت في عام ١٧٨٦ . يبدو للوهلة الأولى أن هناك تناقض واضح ، غير أن الجبرتي لم يخطيء في تقديراته . فقد وقعت معركة المنشية في الثالث من شهر محرم، أي في مطلع عام ١٢٠١ هجريه (السادس والعشرين من أكتوبر ١٧٨٦) ، وجاء وصول فون طونوس في نهاية عام ١٢٠٢هـ في شهر ذي الحجة (الموافق الثاني من سبتمبر ١٧٨٨ – الأول من أكتوبر ١٧٨٨) . ويشير " مانوتشار كاتشكاتشيشفيلي " في تقاريره الخاصة إلى إتصالاته مع البكوات، بعد الهزيمة التي وقعت في المنشية ،على الرغم من أنه كتب أنه لم يستطع الذهاب إليهم . ولكن على الأرجح أن الحديث يدور حول هذه الاتصالات على وجه الخصوص . أما مسألة ذهاب فون طونوس إلى المماليك في عام ١٧٨٦ على ظهر جمل سريع، الخطى أثناء عملية تقهقرهم فكرة لا أساس لها من الصحة .

كان أبرز مشهد وصفه الجبرتي هو المشهد الثالث : « قام القيصر الروسي في محاولة منه لمساعدة المماليك، بإرسال جنوده وسفنه ، وبعض الرسائل مع الشخص المذكور . وقد وصل المبعوث إلى دمياط في نهاية شهر رمضان . وهنا اكتشف أن الواقع يخالف الكلام المرسل تماماً . قام «القادمون» بمهاجمة الميناء، والإستيلاء على عدد من السفن، كما تمت الإشارة إلى ذلك من قبل . وبعد أن عاد المبعوث إلى وطنه، أخبر القيصر عن حقيقة الوضع في مصر، ومن يوجد في القاهرة الآن ومن أي البلاد ينحدر هؤلاء الأمراء، وأن الأتراك لا يكفون عن مواصلة العدوان عليهم» [٦٤] .

ذكر الجبرتى أن الهجوم على دمياط وقع في يونيو عام ١٧٨٨ في نهاية شهر رمضان، وقد وصلت القاهرة أنباء تفيد بأن «المسيحيين قاموا بالإستيلاء على ١٢ سفينة في ميناء دمياط [٦٥]» . كان فون طونوس في هذه اللحظة في طريقه إلى مالطا . ويبدو أنه قد تلقى هناك خبر الهجوم على دمياط، وقرر التحرك إلى زانتي، التي تعد مقر لامبروس كاتسونيس؛ لكي لا يسمح بتكرار مثل تلك الهجمات على الموانئ والسفن المصرية .

٦٤ المرجع السابق ، من صـ ٢٦٧ - ٢٦٨ .
٦٥ المرجع السابق ، صـ ٢٦٤ .

نستنتج من حديث الجبرتي، أن كافة الاتصالات التي جرت مع البكوات، تمت عن طريق القنصل، ويبدو أن البارون فون طونوس التقى لأول مرة مع المماليك بمجرد وصوله إلى دمياط في مطلع سبتمبر عام ١٧٨٨ «فبعد أن وصل إلى دمياط أعلمهم سراً بوصوله وطلب مقابلة شخصية[٦٦]» . وأرسل اسماعيل بك لفون طونوس ضابطه الموثوق به فيلاز زاف عمير[٦٧] ، غير أن المقدم أصر على لقاء اسماعيل بك شخصياً . وفي النهاية أوصل اسماعيل بك المقدم فون طونوس إلى ميناء القاهرة في بولاق ، وأسكنه هناك أحد القصور تحت المراقبة . وفي السابع عشر من سبتمبر، قرأ فون طونوس خلال جلسة الديوان الرسائل المرسلة إليهم ، والتي تضمنت الدعوة للتخلص من حكم الأتراك . ووعدت روسيا من جانبها بتقديم الدعم والمساعدة، اللازمين لاستعادة المماليك لحكمهم في الأراضي السورية[٦٨] لم يتلق فون طونوس أي رد على دعوته وقرر الديوان الذي حضر جلسته كل من المماليك وممثلو الباب العالي إبلاغ السلطات في إسطنبول بشأن القنصل الروسي . وهكذا يكون اسماعيل بك قد درأ عن نفسه أية شبهة تحوم حول اتهامه بخيانة مصالح السلطان العثماني، وكسب مزيد من الوقت في انتظار تطور الأحداث . إقتاد الحراس فون طونوس وأسكنوه إحدى الغرف بالقلعة ولم يتحفظ عليه كأسير ، بل كضيف شرف .

وصلت أنباء اعتقال فون طونوس إلى سانت بطرسبورج في ديسمبر ١٧٨٨ من خلال القنصل كالاماي في" ليفورنو" ، ثم جاء تأكيد الخبر من ليزاكيفيتش من جنوة[٦٩] ولم تكن هناك أية معلومات عن مصير فون طونوس لمدة عام بأكمله ، ولكن في ديسمبر عام ١٧٨٩ وردت أنباء عن وفاة البارون "فون طونوس"[٧٠] . وعلم بتفاصيل الوفاة في وقت لاحق . وفي يونيو ١٧٩٠ أوصل أ.ج ليزاكيفتش لنائب المستشار أوسترمان، الخطاب الذي تسلمه من الإسكندرية . ويعلن كارل فانتوتسي مراسل ليزاكيفيتش في هذا الخطاب : " أن المبعوث من القسطنطينية مع فرمان الباب العالي، طالب بتسليم الصديق المذكور لتوصيله إلى العاصمة سالفة الذكر، وهذا ما علمته من القومندان . خشى اسماعيل بك أنه في حالة تسليمه، أن يرغموه عن طريق التعذيب أو بوسيلة أخرى أن

(٦٦) المرجع السابق ، من صـ ٢٦٨.
(٦٧) أنظر : ب.ف. بيرمينوف ، المرجع السابق ، صـ ٥٣.
(٦٨) أنظر تفاصيل الإجتماع بالكامل في المرجع السابق الخاص ببيرمينوف ب.ف. ، صـ ٥٤ ، وكذلك في كتابه «إبتسامة أبو الهول» ، موسكو ، ١٩٩١ ، صـ ٢٠٩ : صـ ٢١٠.
(٦٩) أرشيف مجلس الدولة ، صـ ٦٣٧ ، أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ٤٨، حافظة رقم ٢ ، وثيقة رقم ٤٨ ، السطر ١٠٥ .
(٧٠) أرشيف مجلس الدولة ، صـ ٧٥٥.

يكشف النقاب عما حدث بينهم، ففكر أنه من الأفضل قتله بدلاً من تسليمه لذلك المبعوث. وهكذا فقد قرروا اعتقاله داخل أحد الحصون بالقلعة. وفي الليل ذهب إليه ٤ جلادين لخنقه ولكنه دافع عن نفسه فتعين قتله أخيراً ضربا بالعصي [٧١]. من المرجح أن هذا قد حدث في الثامن والعشرين من سبتمبر ١٧٨٩ [٧٢].

لم يكن المبعوث الذي جاء من إسطنبول يطلب تسليم فون طونوس، هو أول مبعوث فقد ذكر الجبرتي أنه في يناير عام ١٧٨٩ صدر قرار من الباب العالي بإرسال "الرهائن الأوروبيين" [٧٣]. غير أن اسماعيل بك على الأرجح، كان في هذا الوقت ينتظر وصول الأسطول الروسي بأسرع وقت، ولهذا لم يرغب في أن يسبب أي ضرر لأسيره. ومع نهاية فصل الصيف بدا واضحاً أن الأسطول الروسي لن يصل إلى مياه البحر المتوسط. فقد أدت الحرب بين روسيا والسويد بحلول صيف ١٧٨٨ التي لم يكن يعلم بها فون طونوس أو البكوات المماليك أثناء إجتماع الديوان بالقاهرة، إلى إستبعاد إمكانية إرسال الأسطول الروسي من بحر البلطيق. وهذا يعني أن روسيا لن تستطيع تقديم المساعدة للمماليك في مصر لمواجهة الباب العالي، مما جعل اسماعيل بك يلجأ لهذا الخيار.

هل كانت هناك فرصة لدى فون طونوس لتجنب القتل؟ على الأرجح، نعم كانت هناك فرصة؛ فقد كتب كارل فانتوتسي في رسالته: "لقد أوصل نفسه إلى تلك النهاية التعيسة، إذ أنهم منحوه الوقت والفرصة للهروب أكثر من مرة، ولكنه اعتقد أن هذا العمل سينال من رتبته، و يحط من شأنه". وكان هذا هو نفس التصرف الذي انتهجه القنصل الروسي في اسطنبول المعتقل في القصر ذى السبعة أبراج. أخبروا يا.إ. بولجاكوف آنذاك أن الفرقاطة الفرنسية، ستكون في انتظاره في مضيق القسطنطينية، وعليه فقط أن يستعد سراً للمغادرة فأجاب: "إنه لن يضحي من أجل أمنه الشخصى بشرف العرش والوطن [٧٤]". وهكذا يكون المقدم فون طونوس أول قنصل روسي في مصر قد اجتاز بشرف إمتحان ولائه للدولة، التي أقسم على خدمتها.

(٧١) أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية، الملف رقم ٤٨، حافظة رقم ٢، وثيقة رقم ٤٨، السطور ١٢٠- ١٢١.
(٧٢) قاموس السير الذاتية الروسي، المجلد ٢٧، صـ ١٣٨.
(٧٣) الجبرتي، المرجع السابق، صـ ٢٨٥.
(٧٤) أنظر مقال يا.إ. بولجاكوف عن سيرته الذاتية في القاموس الموسوعي لمؤلفه ف.أ. بروكجاوز، و ي.أ. يفرون.